مراصد

كراسات علمية ٢١

منهج النظر إلى مفهوم الجاهلية

تأليف

هشام جعفر

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مراصد ٢١

كراسات علمية محكمة تعنى برصد أهم الظواهر الاجتماعية الجديدة لا سيما في الاجتماع الديني العربي والإسلامي، تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية.

رئيس مجلس الإدارة

إسماعيل سراج الدين

المشرف العام

خالد عزب

سكرتارية التحرير

أمنية الجميل

محمد العربي

التدقيق اللغوي

أحمد شعبان

رانيا يونس

الإخراج الفني

أمينة حسين

الآراء الواردة في «مراصد» تُعَبِّر عن رأي الكاتب فقط، ولا تعبر عن رأي مكتبة الإسكندرية.

منهج النظر إلى مفهوم الجاهلية

تأليف

هشام جعفر

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة – أثناء – النشر (فان)

جعفر، هشام.

منهج النظر إلى مفهوم الجاهلية / هشام جعفر.– الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، وحدة الدراسات المستقبلية، 2013.

ص. سم. (مراصد ؛ 21)

تدمك9–235–452–977–968

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

1. الجاهلية. 2. الحاكمية. 3. الفلسفة الإسلامية –– مصطلحات. أ. مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي – 297.2

2013675384

© 2013 مكتبة الإسكندرية.

الاستغلال غير التجاري

تم إنتاج المعلومات الواردة في هذه الكراسة؛ للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية. وإنما نطلب الآتي فقط:

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها «مصدر» تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يُشار إلى أنه تمَّ بدعمٍ منها.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الكراسة، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية، وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الكراسة، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨ الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر. البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org.

طُبع هذا الكتاب بدعمٍ من المنحة التي قدمتها مؤسسة كارنيجي بنيويورك لمكتبة الإسكندرية.

المحتويات

تمهيد ٧

أولاً: الجاهلية حالة موضوعية أم فترة تاريخية؟ ٨

ثانيًا: الجاهلية في اللغة والأصول ١٣

ثالثًا: مستويات الجاهلية ١٩

رابعًا: مقومات الجاهلية ٢٣

الخاتمة ٢٩

قائمة المراجع ٣٣

تمهيد

لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، فلم يُسمع هذا اللفظ في العرب إلا بعد نزول القرآن،[1] ثم استخدمته السنة النبوية فكان له حينئذ معنى واضح ومحدد، ولئن شابه كثير من الغموض والاضطراب في الفكر الإسلامي الحديث، فلعل ذلك يرجع في كثير من جوانبه إلى افتقاد التأصيل المنهجي الواضح لهذا المفهوم انطلاقًا من دلالته في اللغة العربية أولاً ثم في الأصول المنزلة بعد ذلك.

وفي محاولة تحديد مفهوم هذا المصطلح تثور مجموعة من التساؤلات الهامة:

أولها : يتعلق ببيان ما إذا كانت «الجاهلية» فترة تاريخية انقضت ببعثة الرسول ﷺ أو بفتح مكة على خلاف في ذلك؟ أم أنها «حالة موضوعية»، وليست «فترة تاريخية» توجد كلما وُجِدَت مقوماتها وتوافرت خصائصها وسماتها؟

وثانيها: أنه إذا كانت الجاهلية «حالة موضوعية» ترتبط بتوافر صفات وشروط معينة، فإن التساؤل الطبيعي حينئذ يكون عن ماهية هذه المقومات وتلك الخصائص؟

ويحاول الباحث عبر هذا الفصل الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال النقاط التالية:

- أولاً: الجاهلية حالة موضوعية أم فترة تاريخية؟
- ثانيًا: الجاهلية في اللغة والأصول.
- ثالثًا: مستويات الجاهلية:
  - أ) جاهلية الفسوق والعصيان.
  - ب) جاهلية الاعتقاد.
- رابعًا: مقومات الجاهلية.

---

١) الطاهر ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مج. ٣ (تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤): ٣٦.

أولاً: الجاهلية حالة موضوعية أم فترة تاريخية؟

يتعلق هذا الجزء بالإجابة عن تساؤل مهم يثور في هذا الصدد مؤداه: هل الجاهلية فترة تاريخية انقضت نهائيًّا وبلا رجعة ببعثة الرسول أم بفتح مكة على خلاف في ذلك، أم هي حالة موضوعية توجد كلما وجدت مقوماتها وتوافرت خصائصها؟ مؤدى الإجابة عن هذا التساؤل يثير قضية شائكة وحساسة في الفكر الإسلامي الحديث تتعلق بمدى إمكانية انطباق «الجاهلية» كحالة موضوعية على المجتمعات المسلمة اليوم؟

يمكن للباحث أن يميز بين تيارين أساسيين في الفكر الإسلامي في الإجابة عن هذا التساؤل:

الأول: نظر إلى الجاهلية باعتبارها فترة انقضت ولا يمكن تكرارها، فالجاهلية وفقًا لهذا التيار تصف حالة مكانية محددة، فهي تنطبق فقط على المشركين من القبائل العربية القاطنين بالجزيرة العربية قبل بعثة النبي ﷺ، دون أهل الكتاب من العرب المعاصرين لهم في الزمان والمشاركين لهم في المكان.

بعبارة أخرى، فإن الجاهلية وفقًا لهذا التيار هي الحال التي كان عليها مشركو العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه، ومن المفاخرة بالأنساب، والكبر، والتجبر، وما كان أهل الجاهلية يعتمدونه من أخذ الجار بجاره والحليف بحليفه ونحو ذلك.

ولقد ساد هذا الفهم للجاهلية لدى أهل التاريخ من الأقدمين[٢]، فقد جعلوا منها وصفًا مختصًّا بالمشركين من العرب فقط قبل بعثة النبي ﷺ، بالرغم من أنهم عادة ما يبدأون تاريخهم، بابتداء الخلق، ويتتبعون سيرة الأنبياء من آدم حتى بعثة النبي ﷺ إلا أنهم لا يطلقون مسمى الجاهلية على ما كان بين الأنبياء من فترة تضمحل فيها تعاليم الرسل.

أما شراح الحديث الحديث[٣] – حديث رسول الله ﷺ – فيجعلون من الجاهلية وصفًا يلحق بما مضى قبل الإسلام أو زمن الفترة قبل الإسلام. فالجاهلية وفقًا لرأيهم هي حالة الجهالة والضلالة التي تكون عليها الأمة قبل أن يأتيها ويظهر فيها الهدى – هدى الأنبياء. فهي هنا صفة للحال والقيم والمعتقدات والنظم الضالة والمتخلفة والظالمة التي تسود في تلك

٢) انظر على سبيل المثال: ابن كثير، **البداية والنهاية** (بيروت: مكتبة المعارف، د.ت.)؛ حيث يذكر: «كتاب أخبار الماضين من بني إسرائيل وغيرهم إلى آخر زمن الفترة: سوى أيام العرب في أيام جاهليتهم»، مج. ١: ١٠٢، ٢١١. ذكر من الأحداث في الجاهلية وذكر جماعة مشهورين في الجاهلية»؛ انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مج. ١(بيروت: دار الصياد، ١٤٠٢/ ١٩٨٢): ٥٠٢. «ذكر أيام العرب في الجاهلية»؛ وهي الوقائع التي كانت بينهم والحروب التي جرت بين العرب في جزيرة العرب؛ انظر: جلال السيوطي، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مج. ١ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٧/ ١٩٦٧): ٩٤– ٩٦ «ذكر دخول عمرو بن العاص في الجاهلية»، وذلك عندما كان في تجارة له في الشام قبل البعثة.

٣) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، مج. ١، ٧: ٨٥، ١٤٩؛ محيي الدين النووي، **شرح صحيح مسلم**، مج. ٢، ٣: ١١، ٨٧. وقد اتفق معهم ابن منظور في لسان العرب؛ حيث عرَّف الجاهلية بأنها زمن الفترة قبل الإسلام؛ انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مج. ١١: ١٣٠.

الحقبة الزمنية. وقد يراد بها الفترة الزمنية، ولذلك أطلقت على الزمن الذي يفصل بين بعثة رسل الله عليهم السلام.[٤]

وعلى خلاف ذلك فقد تبلور اتجاه في الفكر الإسلامي المعاصر والحديث يذهب إلى اعتبار الجاهلية حالة موضوعية تقوم على أنه لو توافرت مجموعة من السمات والخصائص في فرد أو مجتمع أو نظام ما، كان من الممكن وصفه بالجاهلية بصرف النظر عن مكانه أو زمانه.

وفي الحقيقة فإن الباحث يجد جذورًا لهذا التيار، وإن كانت على استحياء، عند أصحاب التفسير من الأقدمين[٥] عند تفسيرهم «للجاهلية الأولى» التي وردت في سورة الأحزاب[٦]. كما نجده عند أبي نصر الفارابي (٢٦٠ – ٣٣٩هـ)[٧] في عرضة لأنواع المدن التي تضاد المدينة الفاضلة، فالمدينة الجاهلية، وهي أحد أنواع هذه المضادات، هي التي لم يعرف أهلها السعادة أبدًا حتى ولو أرشدوا إليها؛ حيث عرفوا فقط الخيرات التي يظن في الظاهر أنها كذلك، وأنها هي الغايات المنشودة مثل سلامة الأبدان والثراء والتمتع باللذات والتكريم والتفاخر؛ حيث يعتبر أهل الجاهلية كلاً من هذه الغايات سعادة في حد ذاتها، أما السعادة العظمى الكاملة عندهم فهي اجتماعها جميعًا.

ويعرض الفارابي لأنماط مختلفة من المدن الجاهلية ينتظمها جميعًا حرص أهلها على المتع الحسية المادية، فالمدينة الضرورية هي التي يقتصر أهلها على الضروري اللازم لقوام الأبدان من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والزواج. والمدينة البدالة هي التي قصد أهلها أن يتعاونوا على بلوغ اليسار والثروة كغاية في حد ذاتها. ومدينة الخسة والشقوة هي التي يهدف أهلها إلى التمتع باللذة من المأكل والمشرب والتزاوج: أي اللذة من المحسوس مع اللهو واللعب بكل وسيلة. ومدينة الكرامة هي التي يتعاون أهلها على أن يصبحوا مكرمين ممدوحين مشهورين سواءً بين الأمم الأخرى أو فيما بينهم. ومدينة التغلب هي التي يهدف أهلها أن يكونوا القاهرين لغيرهم مع الحرص ألا يُقهروا من جانب الغير. وأخيرًا تأتي المدينة الجماعية وقصد أهلها أن يكونوا أحرارًا؛ بحيث يعمل كل فرد منهم ما يشاء، فالهدف هو الحرية الشخصية المطلقة.

---

٤) عبد الوهاب الكيلاني، محرر، **موسوعة السياسة**، مج. ٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١): ٢٢–٢٥.

٥) **تفسير الطبري**، مج. ٢٢: ٤–٥. فإن قال قائل: أو في الإسلام جاهلية حتى يقال عني بقوله: (الجاهلية الأولى) التي قبل الإسلام؟ قيل: فيه أخلاق من أخلاق الجاهلية، وأورد أثرًا عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب قال له: أرأيت قول الله لأزواج النبي ﷺ ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ هل كانت إلا واحدة ، فقال ابن عباس: «وهل كانت من أولى إلا ولها آخرة ..»؛ انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مج. ٣: ٥٢٧، فيقول: « .. ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام فكان المعنى ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر».

٦) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

٧) أبو نصر الفارابي، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، ط. ٢. (القاهرة: مكتبة الحسين التجارية، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨): ١٠٦– ١٢٦. وحول الفكر السياسي لأبي نصر الفارابي، انظر: حورية توفيق مجاهد، **الفكر السياسي**: ١٧٩ – ٢٢٢، ٢١٤– ٢١٦.

وفـي الحقيقـة إن تتبع مسيرة هذا التيـار، الذي يعتبر الجاهلية حالـة موضوعية، في الفكر الإسلامـي الحديـث والظروف الموضوعيـة التي أحاطـت بأصحابه، قد يحتـاج إلى بحث مستقل، ولكن يمكن للباحث أن يرصد بعض العلامات البارزة في هذا الخصوص:

أ) كان أول من استخدم المفهوم بهذا المعنى في الفكر الإسلامي الحديث هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣ - ١٧٩١م) وليس أبا الأعلى المودودي كما هو شائع، فقد ألف ابن عبد الوهاب رسالة صغيرة الحجم (لا يتجاوز عدد صفحاتها عشر صفحات) سماها «مسائل الجاهلية التي يخالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية من الأميين والكتابيين».

وقد توسع فيها علامة العراق محمود شكري الألوسي وأتم شرحها ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) فبلغت ما يزيد عن مائة وخمسين صفحة من القطع الصغير. وقام محب الدين الخطيب – صاحب المكتبة السلفية بمصر – بتحقيقها والتعليق عليها وطبعها في مصر سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٤م)، ثم طبعت بعد ذلك تكرارًا ومرارًا[٨].

ويلاحظ على هذا الطور من سيرة المفهوم ما يلي:[٩]

١) سعة المفهوم بدرجة كبيرة، فقد بلغت مسائل الجاهلية عند ابن عبد الوهاب مائة مسألة، وقد كانت كلها بمثابة بدع عقدية وعملية وبدع عبادية.

٢) أن وصف الجاهلية لحق الكتابيين بالإضافة إلى مشركي العرب أيضًا.

٣) أهم السمات أن هذه الرسالة وإن كانت إحدى نظرات ابن عبد الوهاب إلى المرض العام الذي كان سكان الجزيرة العربية في وقته مصابين بأعراضه؛ فإن الألوسي في شرحه والخطيب في مقدمته قد استخدما الجاهلية لوصف حال المسلمين في وقتهم. بعبارة أخرى، فإن الألوسي عادة ما ينهي كل مسألة بقوله: «إن ذلك من إعمال جهلة المسلمين اليوم أو طائفة منهم، وهذه الخصلة اليوم في كثير من المسلمين، والناس اليوم قد كثرت فيهم خصال الجاهلية.. إلخ»[١٠].

فمفهوم الجاهلية في هذا الطور قد طرح تعبيرًا عن واقع الانحراف في حياة المسلمين عن دينهم، وظل أصحاب هذا الطور يطلقون مسمى الإسلام على من اتصف بصفة من صفات الجاهلية، ولا يجعلون منها وصفًا يشمل جميع المسلمين. فالألوسي في

٨) ومازالت هذه الرسالة تطبع حتى الآن عن المكتبة السلفية بالقاهرة.

٩) انظر أيضًا بالإضافة إلى مسائل الجاهلية: ابن عبد الوهاب، **تفسير الألوسي لآية سورة الأحزاب في تفسيره**، مج. ٢٢: ٩٨؛ محمود شكري الألوسي، **نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب**، ط. ٢.، مج. ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.): ١٥–١٨؛ حيث يعرف الجاهلية وما تطلق عليه.

١٠) **كتاب مسائل الجاهلية**، ط. ٣ (القاهرة: المكتبة السلفية، د.ت.): ٦–٧ من المقدمة، ١٠١، ١٠٠، ٩٥، ٨١، ٧٩، ٤٧، ١٨، ١٥.

مؤلف آخر له يميز بين نوعين من الجاهلية: الجاهلية المقيدة والجاهلية المطلقة، ويجعل من الأولى وصفًا يمكن أن يقوم في بعض ديار المسلمين وفي كثير من الأشخاص المسلمين، أما الجاهلية المطلقة فقد تكون في مصر دون مصر كما هي في دار غير الإسلام، وقد تكون في شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم، وأما في زمان مطلقًا فلا جاهلية بعد بعثة النبي ﷺ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة [١١].

ب) وإذا كان منشأ «الجاهلية» كحالة موضوعية في الفكر الإسلامي الحديث عربيًّا، فإن تطويراتها التالية قد جاءت من الهند. والذي أرجحه أن المفهوم قد انتقل إليها من خلال طبع رسالة ابن عبد الوهاب في فترة مبكرة بها[١٢].

اعتبر المودودي (١٣٢١ - ١٣٩٩هـ/ ١٩٠٣-١٩٧٩م) منذ فترة مبكرة[١٣] الجاهلية «منهج حياة يضاد ويتناقض مع منهج الإسلام في الحياة ونظرته لله وما وراء الطبيعة والكون والإنسان والحياة أو بتعبيره «مسائل الحياة الأساسية».[١٤]

الجاهلية في هذا الطور طُرحت ليس فقط لوصف حال المسلمين الذين انحرفوا عن الإسلام، وإنما أيضًا لمواجهة الحضارة الغربية الغازية بفلسفتها وقيمتها وتصوراتها الكلية لله والإنسان والكون والحياة، ومن ثم فقد كان هناك تمييز للمودودي بين أنواع من الجاهلية: الجاهلية المحضة وهي جاهلية الحضارة الغربية، وجاهلية الشرك وهي جاهلية مشركي العرب وبعض المسلمين الذين يأتون ببعض المظاهر الشركية كالتوسل بالمقبورين وغير ذلك، وأخيرًا تأتي جاهلية الرهبانية لوصف انحراف وضلال أهل الكتاب، وبعض متصوفة المسلمين.

ويمكن أن يكون كتاب أبي الحسن الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» والذي صدر بالعربية (١٩٥٠م) تعبيرًا عن ذلك الطور أيضًا. فقد استخدم الجاهلية لوصف الحال التي كانت عليها الإنسانية قبل بعثة النبي ﷺ، وسمَّى ذلك «العصر الجاهلي» ثم تحدثعن استمرار النزعات الجاهلية في رجال الحكومات في عصر الانحطاط الإسلامي، ثم يختتم كتابة بالحديث عن اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية ومنه العالم الإسلامي أيضًا.[١٥]

١١) الألوسي، **نهاية الأرب**، مج. ١: ١٧، ومقدمة الطبعة الأولى للكتاب كانت سنة ١٣١٤، والفقرة الأخيرة: «شطر من حديث رسول الله ﷺ».

١٢) انظر مقدمة محب الدين الخطيب لكتاب مسائل الجاهلية: ٨١؛ حيث يذكر أن الرسالة قد طبعت في الهند مرارًا إلا أنه لا يذكر سنة الطبع. وانظر حول تأثير دعوة ابن عبد الوهاب في شبه القارة الهندية: محمد فتحي عثمان، **السلفية في المجتمعات المعاصرة**، ط. ٢. (الكويت: دار القلم، ١٤٠١هـ/١٩٨١): ١٠٦؛ برناد لويس، **الغرب والشرق الأوسط**، ترجمة نبيل صبحي (القاهرة: دار المختار الإسلامي، د.ت.): ١٣٠-١٣١.

١٣) منذ (١٣٥٦هـ/١٩٣٧م) عندما صدر كتابه الذي يحمل عنوان الإسلام والجاهلية، وقد تمت ترجمته إلى العربية في الأربعينيات، انظر: **موجز تاريخ الدين وإحياؤه** الذي أصدره سنة (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م). وحول فكر المودودي، انظر: محمد عمارة، **أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية** (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧): ٧٣-١٢١.

١٤) أبو الأعلى المودودي، **الإسلام والجاهلية**، ط. ٢. (القاهرة: دار التراث العربي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠): ٦ - ١٠.

١٥) أبي الحسن الندوي، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟** ط. ٦. (القاهرة: مكتبة الدعوة الإسلامية، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥): ١٣٥ - ١٥٨؛ أبو الحسن الندوي، **ردة ولا أبو بكر لها** (القاهرة: دار المختار الإسلامي، ١٩٧٤م): ١١- ١٦. والجدير بالذكر أن سيد قطب قد تأثر كثيرًا بكتاب الندوي، «ماذا

ثـم تأتي المدرسة القطبيـة لتدخل المفهوم في بنية الفكر الإسلامي الحديث أو لتجعله مثار معركـة بيـن المؤيدين له أو المعارضين أو المتحفظين عليه، وذلـك يعود في جزء كبير منه لما رتبته وتبنته هذه المدرسة وواقع العالم وكيفية تغييره، أو بتعبير آخر فإن النظرية القطبية تحولت إلـى منهج في العمل الإسلامي له قسماته الفكرية وسماتـه الحركية التي ما زالت تأثيراتها إلى يومنا هذا مسيطرة على بعض الحركات الإسلامية وأفرادها.

وقـد طرح سيد قطب مفهـوم الجاهلية في فتـرة الخمسينيات والستينيـات من هذا القرن لمواجهـة المشروع السياسي العلماني لدول الاستقلال بعد رحيل الاستعمار المباشر وموقف الجماهير المسلمة غير الرافضة صراحة لهذا المشروع، بالإضافة إلى مواجهة الحضارة الغربية بمعسكريهـا. ووفقًا له «فإن العالـم يعيش اليوم كله في «جاهلية» من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها، جاهلية لا تخفف منها شيئًا هذه التيسيرات المادية الهامة وهذا الإبداع المادي الفائق»[١٦].

«وهـذه الجاهليـة تقـوم على أساس الاعتداء علـى سلطـان الله في الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية .. وهي الحاكمية، إنها تسنـد الحاكمية للبشر فتجعل بعضهم لبعض أربابًا لا فـي الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيـم والشرائع والقوانين والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة، فيما لم يأذن به الله»[١٧].

وخلاصـة القول: إن الرأي في الفكر الإسلامي انقسـم بشأن احتمال تكرار الجاهلية مرة أخـرى بعد ظهور الإسلام كما انقسم أيضًا بشأن إلحاق صفة الجاهلية بالمجتمعات المسلمة

خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، وربما كان أول تعرف له على مفهوم الجاهلية من خلال الكتاب. انظر مقدمة الكتاب التي كتبها سيد قطب سنة (١٩٥١م) ومقابلته للمؤلف التي ذكرها في كتاب الندوي، **مذكرات سائح المشرق العربي**، ط. ٣. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣/١٩٨٣): ١٠٧–١٠٩. وكانت المقابلة في (١٣٧٠/٥/١٧هـ – ١٩٥١/٢/٢٣م): ٢٢٢–٢٢٣.

١٦) سيد قطب، **معالم في الطريق** (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤): ٩، انظر في التعبير عن المدرسة القطبية كتابات: سيد قطب ومحمد قطب وخاصة في ظلال القرآن لسيد قطب ومعالم في الطريق،انظر: محمد قطب، **جاهلية القرن العشرين** (القاهرة: دار الشروق، د.ت.)؛ **هل نحن مسلمون؟** (القاهرة: دار الشروق، د.ت.)، وانظر في الرد علي هذا الفكر: حسن الهضيبي، «دعاة لا قضاة: أبحاث في العقيدة ومنهج الدعوة في الله»، **كتاب الدعوة ١** (القاهرة، دار الطباعة والنشر الإسلامية، د.ت.)؛ يوسف القرضاوي، **الاجتهاد في الشريعة الإسلامية مع نظريات تحليلية في الاجتهاد المعاصر** (الكويت: دار القلم، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥): ١٨٦–٢١٣، حيث يعارض رأي سيد قطب في إطلاق مسمى الجاهلية على المجتمع المسلم اليوم، بالإضافة الى تفنيد رأيه في عدم التعرض بالاجتهاد الفقهي لمشكلات المجتمع الجاهلي المعاصر لاختلاف مشكلاته عن مشكلات المجتمع المسلم المزمع إنشاؤه؛ سالم البهنساوي، **الحكم وقضية تكفير المسلم**، ط. ٣. (الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٨٥)؛ **شبهات حول الفكر الإسلامي** (المنصورة: دار الوفاء، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩)؛ حيث يميز بين الجاهلية والكفر، ويتحفظ على تأسيس فكرة التكفير على كتابات كلٍ من المودودي وسيد قطب؛انظر كذلك المعركة التي أثيرت حول كتاب: عبد الجواد يس، **مقدمة في فقه الجاهلية المعاصرة** (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦).
انظر مقالات فهمي هويدي في الرد عليه في الأهرام ١٩٨٦/٨/٥، ١٩٨٦/٨/١٢. وفي الحقيقة فإن تأثير منهج سيد قطب على العمل الإسلامي دون مراعاة للظروف التي أحاطت بهذا الفكر والظرف التاريخي الذي كان تعبيرًا عنه، انظر حول الظروف الموضوعية التي أحاطت بفكر قطب وتأثيراتها عليه: طارق البشري، «الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر»، في **الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية: أوراق في النقد الذاتي**، عبدالله النفيسي وآخرون (الكويت، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م)؛ انظر حول المنهج عند سيد قطب: جعفر شيخ إدريس، «قضية المنهج عند سيد قطب»، في **معالم في الطريق**؛ والتعليقات والمناقشات التي تلت ذلك البحث في ندوة: «اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، البحرين (٣–١٤٠٥/٦/٦هـ/ ٢٣–١٩٨٥/٢٥م) الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

١٧) قطب، **معالم في الطريق**: ١٠.

اليـوم بناءً على اختـلاف الآراء بشأن تحديد مضمون الجاهلية ومقوماتهـا[١٨] والجاهلية التي اعتـرف بها الفكر الإسلامي الحديث لدى بعض تياراته ورمـوزه؛ من حيث إمكانية تكرارها مرة أخرى نظر إليها باعتبارها منهجًا في الحياة مناقضًا لمنهج الله، أو بتعبير آخر الجاهلية وفقًا لـه منهج في الحياة مقابل ومضاد لمنهج الإسـلام، وأن الجاهلية طُرِحت أولاً كتعبير عن واقع الانحـراف في حياة المسلمين ثم استُخدمت لمواجهة المشروع العلماني للدول الوطنية بعد الاستقلال وموقف الجماهير المسلمة من هذا المشروع.

وواقع الأمر فإن حسم هذا الخلاف لا يمكن أن يتم إلا في ضوء التحديد الواضح لدلالات مفهوم الجاهلية كما جاءت في اللغة والأصول المنزلة. وهذا ينقلنا إلى النقطة التالية.

ثانيًا: الجاهلية في اللغة والأصول

الظاهـر أن الجاهلية نسبة إلى «الجاهـل»، وهي لفظ الجهل الذي هو ضد العلم والمعرفة. وهناك رأي يقول أنها ليست من الجهل الذي هو ضد العلم، ولكن من الجهل الذي هو السفه أي ضد الحلم وهو شدة الأنفة والخفة والغضب وما إلى ذلك من معان.

وفـي الحقيقة فإنه لا منافاة بين الاثنين، فإن العرب قـد أطلقت الجهل[١٩] على عدم العلم، قال السموأل: «فليس سواء عالم وجهول»، وقال النابغة: «وليس جاهل شيء مثل من علما» ، كما أطلقت الجهل على ما يقابل الحلم، قال ابن الرومي:

جهول كجهل السيف والسيف منتضي وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر (عروة بن كلثوم في معلقته):

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينـــا فنجهل فـوق جهـل الجاهلينا

وواقـع الأمر أنه كانـت اللغة فيما يتعلق بمـادة (ج.هـ.ل) التي هي الجـذر اللغوي لكلمة الجاهلية تدل على وجود معنيين مختلفين لهذه الكلمة بينهما صلات وروابط أحدهما معرفي والآخر خلقي، إن النصوص الشرعية في القرآن والسنة قد استخدمت هذه المادة (ج.هـ.ل) في المعنييـن سالفي الذكر وزادت عليهما معنىً ثالثًا، بأن جعلت من الجاهلية مذهبًا وطريقة حياة تضـاد وتقابل منهج الحياة في الإسلام على نحو مـا سيأتي بيانه. فمن الآيات التي وردت فيها

١٨) فبينما اعتبر المودودي: الجاهلية منهجًا يضاد منهج الإسلام في نظرته لمسائل الحياة الكبرى، اعتبر قطب الجاهلية منهجًا في الحياة يقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية وهي الحاكمية. ويجعل د. محمد البهي من الجاهلية مرادفًا للمادية والأنينية، انظر: محمد البهي، **من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك** (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣): ٢٤١–٢٤٤؛ **القرآن في مواجهة المادية** (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨).

١٩) انظر مادة جهل في لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروز آبادي، انظر: الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**؛ عبد المقصود رمضان، وعبد العظيم خطاب، **محاضرات في السيرة** (القاهرة: مكتبة الجامعة الأزهرية، د.ت.): ٥؛ أحمد أمين عبد الغفار، **الجاهلية قديمًا وحديثًا: دراسة في ضوء القرآن والسنة والفكر الإسلامي** (الكويت: شركة الشعاع، د.ت.)؛ أحمد أمين، **فجر الإسلام: بحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام وفجر الدولة الأموية**، ط. ١٣. (القاهرة: مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٢): ٧٨–٨٣.

هذه المادة بمعنى عدم العلم قوله تعالي ﴿ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة:٢٧٣][٢٠].

ومن الآيات التي وردت فيها بمعنى الطيش والسفه قوله تعالي: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[النساء:١٧][٢١].

ولكن كثيرًا مما ورد في كتاب الله من صيغ هذه المادة قد ورد بمعنى المذهب والطريقة، والمراد به ما يقابل الإسلام من مناهج الحياة. وهذه الآيات ليست مقصورة على الإشارة إلى النهج المقابل للإسلام في صيغته الأخيرة كما بينها الله تعالى على لسان محمد ﷺ أو على القوم المقابلين للمسلمين من أتباع الرسالة المحمدية، بل وردت في كتاب الله تعالى صفة للمناهج المقابلة للإسلام وللأقوام غير المسلمين على عهد جميع الأنبياء – سلام الله عليهم – إلى عصر محمد ﷺ.

ويلاحظ أنه في القرآن الكريم قد وردت هذه المادة بهذا المعنى في سياقين[٢٢]: أحدهما يقابل بين النبوات وأتباعها وبين الجاهلين، وثانيهما: وردت فيه المادة بصيغة (الجاهلية) ويتناول مواقف معينة.

وفيما يلي نستعرض بعض الآيات التي وردت في السياق الأول، ويلاحظ أن هذه الآيات تناولت اعتقادات ومظاهر سلوكية وأخلاقية من المواقف الجاهلية المقابلة للإسلام:

فالجاهلية على المستوى الاعتقادي تتضمن موقفًا من الوحي بأطرافه وعناصره: المرسل (الله) والرسول والرسالة، أو بعبارة أخرى فإن الركيزة النهائية التي تميز الجاهلية والجاهلين لله – ﷻ – تصور ماديًّا مجسدًا تدركه الحواس، أو يرمز له بجسم مادي ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٨–١٣٩].[٢٣]

٢٠) «قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قومًا تجهلون، في سورة الأحقاف، الآية. يقول ابن كثير في تفسير سورة البقرة ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم، يحسبهم أغنياء من التعفف، انظر: **مختصر ابن كثير**، مج. ١: ١٤٤؛ الزمخشري، **الكشاف**، مج. ١: ٣١٨؛ **ابن كثير**، «أي لا تعقلون ولا تفهمون: تفسير آية الأحقاف»، **المختصر**، مج. ٣: ٣٢٢. وقال الزمخشري، **الكشاف**، مج. ٤: ٣٠٧ «ولكنكم جاهلون لا تعلمون..».

٢١) قال الزمخشري، **الكشاف**: ٤٨٨ «أي يعملون السوء جاهلين سفهاء؛ لأن ارتكاب القبح مما يدعو إليه السفه والشهوة لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل»، الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

٢٢) محمد مهدي شمس الدين، **الجاهلية في كتابه: بين الجاهلية والإسلام**، ط. ٣. (بيروت: المؤسسات الجامعية للدراسات، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م): ٢٣٥ – ٢٥٦.

٢٣) فهم يجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل، انظر: **مختصر تفسير ابن كثير**، مج. ٢.: ٤٧. ووصفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع، انظر: **تفسير الكشاف**، مج. ٢.: ١٥؛ شمس الدين، **الجاهلية في كتابه: بين الجاهلية والإسلام**: ١٣٩– ١٤٠.

وامتـدادًا لهـذا التصور المادي للألوهية يجعلون من النبـوة لا تنبغي لبشر مثلهم، وأن قيمة الإنسان رهن بما يملكه من ثروة وجاه أو ما ينتسب إليه من سلالة وعشيرة ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود:٢٧ – ٢٩].(٢٤)

وهـم في حوارهم مع الأنبياء يسألونهم آيات ماديـة ليؤمنوا بهم ويصدقوهم ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١].(٢٥)

وطريقـة الجاهلية في الحياة طريقة شهوانية، ومسلـك أصحابها مسلك فاقد لأي محتوى أخلاقـي أو قيـم يحتكمـون إليهـا ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل:٥٤–٥٦].

فهـم كانوا يرتكبـون الفاحشة معلنيـن بها، ولا يتستـر بعضهم عن بعض خلاعة ومجانة وانهماكًا في المعصية، وأراد بالجهالة السفاهة والمجانة التي كانوا عليها(٢٦).

وفـي آيـات أخـرى يبيـن الله منهـج وحـال قـوم مـن المسلمين فـي مقابل خلـق رجال الجاهليـة ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣](٢٧)

٢٤) فهم «يتسافهون على المؤمنين ويدعونهم أراذل، أو يجهلون لقاء ربهم، أو تجهلون أنهم خير منكم»، انظر: **الكشاف**، مج. ٢: ٣٩٠؛ **مختصر ابن كثير**، مج. ٢: ١٨؛ شمس الدين، **الجاهلية في كتابه: بين الجاهلية والإسلام**: ٢٣٩.

٢٥) «ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة عن الله بتصديق الرسل كما سألوا (فقالوا أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا) .. (وكلمهم الموتى) أي أخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل (وحشرنا عليهم كل شيء قبلًا) فيخبرهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) أي أن الهداية إليه لا إليهم بل يهدي ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد، انظر: **مختصر ابن كثير**، مج. ١: ٩–٦. وآيات القرآن كثيرة تبين طلب المشركين لآيات مادية من الرسل للإيمان بهم.

٢٦) **تفسير الكشاف**: ٣٧٤؛ **مختصر ابن كثير**: مج. ٢: ٦٧٦. وتأمل دعاء يوسف حين خُيِّر بين السجن والفاحشة فاختار السجن ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[يوسف :٣٣]. فالصبابة إلى النساء أي الميل إليهن والاشتياق لهن في حرام يجعل صاحبه من الجاهلين، انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مج. ٤: ٣٥٠٧–٣٥٠٨؛ **تفسير الكشاف**، مج. ٢: ٤٦٧.

٢٧) أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه إلا حلمًا، انظر: **مختصر ابن كثير**، مج. ٢: ٦٣٨. وهم قد وصفوا هذه الآيات في مقابل المسلمين المستنيرين بالإسلام؛ شمس الدين، **الجاهلية في كتابه: بين الجاهلية والإسلام**: ٢٤١.

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥][٢٨]

ويأمر الله رسوله ﷺ بـ ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف :١٩٩] أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم .. وتمهل من غير كلفة .. ولا تطلب منهم الجهد ولا تشق عليهم حتى لا ينفروا، وأعرض عن الجاهلين أي لا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم واحلم عليهم واغضض على ما يسوؤك منهم.»[٢٩]

ويلاحظ أن الآيات التي وردت في السياق الأول كلها مكية وكانت المقابلة فيها بين المسلمين وأتباع غير الإسلام، وبين طريق الله وطريقة الضلالة، وقد جاءت الآيات التي تحتوي صيغ مادة (ج.هـ.ل) في هذا السياق؛ لتبرز اعتقادًا معينًا أو تضيء سلوكًا خاصًّا ورؤية وخلقًا يتميز به الجاهلون، وجاءت في بعض الآيات وصفًا للأشخاص؛ فهي تدل على أن الموقف المعين موقف غير إسلامي، وعلى أن أصحاب هذا الموقف لا ينطلقون فيه من قاعدة إسلامية[٣٠].

أما السياق الثاني فقد وردت فيه مادة (ج.هـ.ل) بصيغة الجاهلية، وهي أربع آيات كلها مدنية:

الآية الأولى في سورة آل عمران تتعلق بطائفة ممن اشتركوا في معركة أحد: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] . والآية الثانية في سورة المائدة في شأن الحكم بين الناس: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٤٩-٥٠].

٢٨) أي إذا سفه عليهم وكلمهم بما لا يليق أعرضوا عنه و لم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، انظر: **مختصر ابن كثير**، مج. ٣: ٨.

٢٩) **تفسير الكشاف**، مج. ٢: ٨٩؛ **مختصر ابن كثير**، مج. ٢: ٧٦.

٣٠) شمس الدين، **الجاهلية في كتابه: بين الجاهلية والإسلام**: ٢٤٢.

والآيــة الثانية في سورة الأحزاب فــي شأن نساء النبي ﷺ: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والآية الرابعة والأخيرة في سورة الفتح في شأن صلح الحديبية: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الفتح: ٢٥-٢٦]

ويلاحــظ أن الاستعمــال في الآيات الأربع جــرى على هذا النحو (ظــن الجاهلية – حكم الجاهليــة – تبرج الجاهليــة – حمية الجاهلية) فــكأن ثمة ظن بالله مختصــ بالملة الجاهلية، وكذلك يوجد حكم مختص بالجاهلية، وتبرج مختص بالجاهلية وحمية مختصة بالجاهلية[٣١]

فالجاهليــة في هذه المواطــن الأربعة لم تكن صفة للأشياء وإنما جــاءت مرجعًا تقاس عليه الأشياء، فثمة ظن بالله معين له آثار سلوكية أخرى مختص بما يقابل الجاهلية يتباين مباينة كاملة عــن ظن آخر لــه آثار سلوكية أخرى مختص بما يقابل الجاهليــة وينفيها وهو الإسلام، وهكذا الحــال في سائر الأشياء إذا نسبتها إلى الجاهلية كان لها معنى وآثار سلوكية تختلف عن معناها وآثارها السلوكية إذا نسبتها إلي الإسلام: تبرج الجاهلية، وحكمها، وحميتها، فالجاهلية طريقة ومنهاج فــي الحياة يقضي على ملتزمــه بألوان من السلوك والمواقــف والعواطف والعلاقات الإنسانية، فهي منبع لذلك كله وقاعدة تنطلق منها.[٣٢]

ولــم تــرد «الجاهلية» في هــذه الآيات منسوبة إلــى قوم بعينهم، وإنمــا وردت مجرده عن النسبة؛ لأنها منسوب إليها وليست منسوبة إلى شيء، إنها النظام من حيث هو طريقة حياة.[٣٣]

وقــد جــرت أحاديث رسول الله ﷺ علــى هذا النحو فــي استعمالها لصيغــة الجاهلية، فقد استعملت بأحد معنيين:

الأول: باعتبارها «فترة تاريخية» سبقت مجيء الإسلام، فمن ذلك قوله ﷺ «تجدون الناس معــادن، خيارهم في الجاهليــة، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».[٣٤] ومــن ذلك قوله أيضًا عن

٣١) الزمخشري، **الكشاف**: ١٢٨ في تفسير «ظن الجاهلية» يظنون بالله غير ظن الحق الذي يجب أن يظن به، و(ظن الجاهلية) كقولك حاتم الجود ورجل صدق، يريد الظن المختص بالملة الجاهلية، وتبرج الجاهلية، وحمية الجاهلية.

٣٢) شمس الدين، **الجاهلية في كتابه: بين الجاهلية والإسلام**: ٢٤٥ – ٢٤٦.

٣٣) المصدر السابق.

٣٤) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب المناقب، حديث رقم ٣٤٩٣.

حكيم بن حزام، ﷺ، قال: «قلت يارسول الله أرأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة ومن صلة رحم، فهل لي فيها من أجر؟ فقال النبي ﷺ: «أسلمت على ما سلف لك من خير».[٣٥] ومن ذلك أيضًا أن عمر سأل النبي ﷺ: «كنت قد نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، قال: «أوفِ بنذرك».[٣٦] وعن عائشة قالت: قلت يارسول الله: إن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه، قال: لا ينفعه إن لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».[٣٧]

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.[٣٨]

وقد اختلف المفسرون وشراح الأحاديث في الفترة الزمنية التي يطلق عليها وصف الجاهلية، والتي أطلق عليها القرآن في آية سورة الأحزاب «الجاهلية الأولى».[٣٩] فمن قائل أنها بين آدم ونوح أو بين نوح وإبراهيم أو بين عيسى وموسى أو بين محمد وعيسى واختار ابن جرير الطبري أنها ما بين آدم وعيسى. كما اختلفوا في تحديد «ضابط آخرها» هل هو بعثة النبي أم فتح مكة.[٤٠]

المعنى الأول أن الجاهلية (كنظام) قد انتهت من جزيرة العرب بفتح مكة.[٤١] وكزمان مطلقًا فقد انتهت بعد بعثة النبي ﷺ فإنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.[٤٢]

أما المعنى الثاني الذي استعملته السنة للفظ (الجاهلية) فقد كان لوصف الحال التي يكون عليها فرد أو جماعة من اتصاف بقيم الجاهلية، وسلوكياتها، وأخلاقها، فمن ذلك ما يُروى عن عبدالله بن مسعود – ﷺ – قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منَّا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».[٤٣]

---

٣٥) رواه البخاري: حديث رقم ١٤٣٦، كتاب الزكاة، باب «من تصدق في الشرك ثم أسلم».

٣٦) الحديث متفق عليه، وهذه رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما، حديث رقم ٢٠٣٢ في البخاري، باب الاعتكاف ليلًا. ويقول ابن حجر العسقلاني في الفتح (**فتح الباري**)، مج ٤: ٢٧٤: إن في هذا الحديث ردًّا على زعم أن المراد بالجاهلية ما قبل فتح مكة، وأنه إنما نذر في الإسلام، وأصرح من ذلك ما أخرجه الدار قطني عن طريق سعيد بن بشر عن عبيد الله بلفظه «نذر عمر أن يعتكف في الشرك».

٣٧) رواه مسلم في كتاب الإيمان. «والجاهلية ما كان قبل النبوة، سموا بذلك لكثرة جهالاتهم»، انظر: النووي، **صحيح مسلم**، مج. ٣: ٨٧.

٣٨) انظر على سبيل المثال، فتح الباري، الأحاديث رقم ٣٨١٣ إلى ٣٨٤٤ «باب أيام الجاهلية». وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال أناس لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ بها ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام».

٣٩) انظر عرضًا لهذه الأقوال في ابن جرير الطبري، مج. ٢٢: ٤–٥؛ **تفسير الألوسي**، مج. ٢٢: ٨–٩.

٤٠) العسقلاني، **فتح الباري**، مج. ٧: ١٤٩.

٤١) انظر تأييد هذا الرأي في المرجع السابق؛ حيث يرد على جزم الإمام النووي في عدة مواضع من شرح مسلم أن المقصود بها حيث أتى ما قبل البعثة، ويؤيد قوله ذلك بأقوال منها أن مسلمًا في مقدمة صحيحه قال: إن «أبا عثمان وأبا رافع أدركا الجاهلية»، وقول أبي رجاء العطاردي: «رأيت في الجاهلية قردة زنت» وقول ابن عباس: «سمعت أبي يقول في الجاهلية: أسقنا كأسًا دهاءً»، وابن عباس إنما ولد بعد البعثة.

٤٢) الألوسي، **نهاية الأرب**، مج. ١: ١٧.

٤٣) وانظر ما قاله الرسول ﷺ عندما هموا أن يقتتلوا: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» أخرجه البخاري: باب ما ينهي عن دعوى الجاهلية.

ومن ذلك أيضًا ما يُروي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من كره من أمره شيئًا فليصب، فإنه مَـن خرج عن السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية».[٤٤] ومن ذلك أيضًا قول الرسول ﷺ لأبي ذر: «إنـك امرؤ فيك جاهلية»[٤٥] أي «فيك خصلة من خصال الجاهلية أو خلق من أخلاقها»[٤٦]. وعـن ابـن عباس أن النبي ﷺ قـال: «أبغض الناس إلـى الله ثلاثة: ملحد في الحـرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق».[٤٧]

ويلاحـظ أن السنة في هـذا المعنى قد نسجت على منوال القرآن فـي النسبة إلى الجاهلية، فقـد جرى الاستعمال في الحديث على هذا النحو: دعـوى الجاهلية – سنة الجاهلية – الميتة الجاهليـة .. إلخ، فهي في هذه المواضع جميعًا تـدل على أن هناك دعوى مختصة بالجاهلية، وسنـة مختصة بها تعـم جميع ما كان أهل الجاهلية يعتمدونه فـي سلوكهم أو يعتقدونه، وميتة مختصـة بالجاهلية، فهي جميعًا اسم جنس يعم جميع ما يقابل ما جاء الإسلام به[٤٨] من رابطة إيمانية تقتضي ملازمة الجماعة وعدم مفارقتها بالإضافة إلى أخلاقه وسلوكياته.

ومـؤدى ما سبق: فإن الجاهليـة وإن جاءت في النصوص الشرعية بمعنـى الفترة التاريخية المحـددة إلا أن هـذا لا ينفي أنهـا يمكن أن تكون «حالـة موضوعيـة»، أي وصفًا يمكن أن يلحـق بأية فترة زمنية خلت من منهج الله. فاستعراض وجهتـي النظر السابقتين (الجاهلية فترة تاريخيـة أم حالـة موضوعية) في ضوء آيات القرآن وأحاديـث الرسول ﷺ ينتهي بنا إلى القول بـأن مفهـوم الجاهلية – كما جاء في النصوص – لا يعد في حقيقته أن يكون (ظاهرة اجتماعية إنسانيـة) قبل أن يكون وقتًـا زمنيًّا خاصًّا معينًا يمكن أن يتخذ صـورًا وتعابير شتى. فالجاهلية بهذا المعنى جوهر، فكرة، مضمون، تجريد له صور وقوالب شتى، وهي بهذا المعنى لا تحد من حيث نطاق انطباقها وتوافر مقوماته بزمان أو مكان أو إنسان، على معنى أنها كما وجدت قبـل الإسـلام يمكن أن توجد بعده، وكما ظهرت وتأصلت في جزيـرة العرب قبل البعثة فإنها تتعداهـا إلـى سواها، فضلًا عن أنها تصلـح وصفًا للإنسان بغض النظر عـن نطاقه الاجتماعي ومستوى تحضره.[٤٩]

٤٤) متفق عليه، وهذه الرواية للبخاري في كتاب الفتنة، أما رواية مسلم فهي في كتاب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن «من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية .....».

٤٥) متفق عليه.

٤٦) العسقلاني، **فتح الباري**، مج. ١: ٨٥؛ النووي، **شرح مسلم**، مج. ١١: ١٣٢.

٤٧) رواه البخاري، باب من طلب دم امرئ بغير حق.

٤٨) العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مج. ١١: ٢١١.

٤٩) والباحث إذ يتفق مع الرأي القائل بأن الجاهلية «حالة موضوعية»، وليست فترة زمنية، إلا أنه يتحفظ بشأن مستويات الجاهلية في هذه الرسالة.

«الجاهليــة إذن ليست عهدًا ولا أشخاصًــا معينين وجدوا في زمن معين، وإنما هي صفات وخصائصــ ومقومات وظواهر وسلــوك، فردية أو اجتماعية وإن حملهــا أشخاص معينون أو جيل من الأجيال في زمن من الأزمان».[٥٠]

ثالثًا: مستويات الجاهلية

سبق وأوضح الباحث أن المقصود بمستويات المفهوم ثلاثة أشياء:[٥١]

١) المستويات داخل المفهوم ذاته، وهذا ينصرف إلى مضمون، ومكونات المفهوم.

٢) الجهات المخاطبة بالمفهوم والمطالبة بتطبيقه أو الامتناع عن نواهيه، فالمفاهيم الإسلامية تتميز بصفة عامة بأنها «مفاهيم عملية تطبيقية»، بمعنى أنها ترتب التزامات حيال المخاطبين بها توجب عليهم الإتيان بها أو الامتناع عنها.

٣) وإذا كانت المفاهيم الإسلامية ترتب التزامات حيال المخاطبين بها فإن هذا يقتضي التعرف على الحكم الذي يأخذه المقصر أو الممتنع عن إتيانه، فإذا كانت الجاهلية «حالة موضوعية» كما سبق القول، فإنه يجب التمييز بين عناصر ثلاثة تتكون منها الحالة الموضوعية:

العنصر الأول يتعلق بمستوى العقيدة؛ وهي بمثابة التصور الكلي العام والشامل الذي يصدر عنه السلوك والممارسة. أما العنصر الثاني فينصرف إلى المقومات؛ وهي تصورات جزئية أو مواقف نظرية لها آثارها السلوكية، أو بتعبير آخر فهي بمثابة الأعمدة التي يقام عليها البنيان، بنيان المفهوم، ولكنها لا تغني عن الأساس العقيدي شيئًا؛ لأنها في النهاية تفريعات عليها. أما العنصر الثالث: مستوى الممارسة أو السلوك الظاهري؛ وهي بمثابة مؤشرات تنبثق من العقيدة ومقوماتها، وتدل عليها وتتأسس على المقومات والمواقف النظرية.

وغالبًــا مــا يكون هنــاك اتساق: اتساق داخــل العقيدة فيمــا بين أجزائها وبيــن مقوماتها، واتســاق بين العناصر الثلاثة، ولكن فــي أحيان أخرى، يصبح هناك عــدم اتساق بين العناصر الثلاثة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢].

٥٠) انظر حول هذه الحقيقة: البهي، **القرآن في مواجهة المادية**: ٤٥.

٥١) انظر مستويات الحاكمية فيما قبله.

وفيمـا يخص الجاهلية فإنه يمكن التمييز بين مستويين يتوزعان في العناصر الثلاثة السابقة، ويخصان حالة المقترف لأحد عناصرها أو لعناصرها كلها.[٥٢]

جاهلية الفسوق والعصيان

فهنـاك أولاً جاهلية الفسوق والعصيان، ويطلق عليها البعض «جاهلية الأعمال»، [٥٣] وهي تلـك التـي لا يخرج صاحبها مـن الملة، فقد عنون البخـاري بابًا في كتـاب الإيمان بـ «باب المعاصـي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابهـا إلا بالشرك لقول النبي ﷺ لأبي ذر: «إنـك امرؤ فيك جاهليـة»، وقوله تعالـى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].[٥٤]

جاهلية الاعتقاد

أمـا المستـوى الثاني فهـو الذي تتعلق فيـه الجاهلية وتختص بالكفر، ويطلـق عليه سالم البهنساوي «جاهلية الاعتقاد»؛ وهي تلك التي يخرج بها صاحبها عن الملة؛ لأنه لا يصدر عن مجرد سلوك وإنما عن عقيدة تستحل ذلك السلوك.

التفرقـة بين نوعـي الجاهلية (جاهلية السلـوك وجاهلية الاعتقاد) تسمـح بالقول أن الفرد المسلـم أو الأمة المسلمة (المجتمع) والنظام الإسلامي (سياسـي أو اقتصادي أو قانوني...) قـد تكـون في أيٍّ منهما خصلة من خصال الجاهلية، ومع ذلك فلا ينتفي عن أيٍّ منهما مسمى الإيمان، ويكون الحكم في هذه الحالة متعلقًا بالدرجة لا بالطبيعة.[٥٥]

فالفرد المسلم يمكن أن يرتكب عملاً من أعمال الجاهلية «يا أبا ذر إنك إمرؤ فيك جاهلية» وهو بذلك يكون قد خرج على أحكام الدين، باعتبار الجاهلية كل خروج على أحكام الدين. أمـا تحديـد ما إذا كان هذا الخروج قد بلغ الردة عن الإسـلام أم لا فيُرجع فيه لأحكام الشريعة التي تحدد الفرق بين المعصية التي يعتبر مرتكبها مرتدًّا وبين تلك التي لا تعتبر كذلك.[٥٦]

٥٢) نجد جذورًا لهذه التفرقة عند الزمخشري في تفسيره الكشاف وإن لم يكن بهذا الوضوح؛ حيث يقول في تفسير آية الأحزاب (٣٣): ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والعصيان في الإسلام «الزمخشري»، مج. ٣: ٧، ٥. ونجدها أيضًا عند ابن القيم في كتاب الصلاة عند حديثه عن الكفر والإيمان؛ حيث يقول :«فالكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، وكذا الجهل جهلان: جهل كفر كما في قوله تعالى: «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب» (النساء :١٧)، ويقول في موطن آخر: «فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة؟ وإلى مالا ينقل عنها ...» نقلًا عن محمد بن سعيد بن سا لم القحطاني، **الولاء والبراء في الإسلام: من مفاهيم عقيدة السلف** (الرياض: دار طيبة، د.ت.): ٦١–٦٢.

٥٣) البهنساوي، **الحكم وقضية تكفير المسلم**: ٧١– ٧٦؛ **شبهات حول الفكر الإسلامي**.

٥٤) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، مج. ١: ٨٥.

٥٥) فمن أعظم أصول أهل السنة والجماعة أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، ونفاق وإيمان، (وأضيف وجاهلية وإسلام)، انظر: محمد بن سعيد بن سا لم القحطاني، **رسالة الصلاة لابن القيم**: ٦٣–٦٤. ويقول ابن حجر في تعليقه على حديث أبي ذر: «وأما قصة أبي ذر فإنما ذكرت؛ ليُستدل بها على أن من بقيت فيه خصلة من خصال الجاهلية سوى الشرك لا يخرج عن الإيمان بها سواء كانت من الصغائر أم من الكبائر». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، مج. ١: ٨٥. ويكون الوصف الذي يلحق غير المسلم متعلقًا بالطبيعة أو بتعبير الألوسي فإن الأولى جاهلية مقيدة والثانية جاهلية مطلقة.

٥٦) الهضيبي، **دعاة لا قضاة**: ١٨١.

ويصير الجوهر الذي يمنحه الناس الولاء والانتماء هل هو التوحيد أم الشرك؟ ولأيهما الغلبة.. قيم التوحيد أم قيم الشرك، يصير هذا الجوهر هو معيار التفرقة والتمييز بين الجاهلية بالنسبة للأمة أو المجتمع.(٥٧)

وتصبح الفلسفة والمقومات أو القيم الحاكمة التي تُبنى عليها النظم المختلفة هي التي تميز تلك النظم التي تتصف بجاهلية الاعتقاد من تلك التي تتصف بجاهلية السلوك.(٥٨)

إن هذه التفرقة والتمييز بين الممارسة والسلوك وبين العقيدة التي يصدر عنها هذا السلوك وتلك الممارسات تُعد معيارًا مهمًّا في التفرقة بين نوعي الجاهلية، ومن ثم فقد نجد في أحيان كثيرة سلوكًا للأفراد وممارسات مجتمعية وسياسات للنظم تخرج عن أحكام الدين، ولكن أصحابها في ذلك لا يخرجون عن الملة إلا إذا صدرت في سلوكياتهم وممارساتهم وسياساتهم تلك عن عقيدة تناقض عقيدة الإسلام ومقتضياتها، هذا ما لا يمكن التحقق منه؛ لأنه في جوهره عمل قلبي نُهِينا كمسلمين عن التنقيب عنه.

كما تصير التفرقة بين الفرد والمجتمع والنظم عند إطلاق الأحكام أو تحديد الأوصاف أمرًا بالغ الأهمية بهذا الصدد فالحكم أو الصفة التي تلحق بالمجتمع أو النظام ليست بالضرورة يجب أن تلحق بالفرد، كما أن اتصاف بعض النظم أو كلها بوصف يغلب عليها ليس معناه بالضرورة أن هذا الوصف يلحق بالمجتمع وأفراده.

وهذا لا ينافي بالضرورة التأثير المتبادل الذي يحدث بين الأطراف الثلاثة (الفرد والمجتمع والنظام) باعتبار أن عدم الاتساق بينها سيترك أثره – ولا شك – عليها جميعًا، كما أن التغير في أحدها له آثاره على الآخرين. فالاستعمار الغربي في هجمته الشرسة على العالم الإسلامي في القرن الماضي قد بدأ بتغيير النظم التي يحتكم إليها الفرد المسلم في حياته اليومية مما كان له آثاره الخطيرة على سلوكياته وممارساته بل وتصوراته بما ترك أثره على المجتمع ككل.

كما تصير التفرقة بين النخب والجماهير أمرًا بالغ الأهمية في واقعنا العربي والإسلامي لما نلحظه من خلاف بين هذه النخب والجماهير في موقفها من الإسلام. فبعض النخب المثقفة وكثير من النخب الحاكمة في بلادنا تخلو من الوعي الإسلامي والتفهم الصحيح للدين، بل وينظرون إلى تقاليد المسلمين وشعائرهم وشريعتهم نظرة الازدراء والاستحقار، ويعتقدون أنهم إذا اتبعوا الحياة الإسلامية وتمسكوا بأهداف الدين والقيم والآداب الإسلامية فإنهم يحرمون ويفقدون التقدم والنهضة.

٥٧) عمارة، أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية: ٨٦–٩١.

٥٨) مقتضيات إعلان الالتزام العقيدي: ٣٩ ما قبله.

أما الجماهير المسلمة فلم يستطع أحد محو آثار الإسلام وتعاليمه وشريعته من كيانها، فهي لا تـزال تنظر إلى الإسلام وقيمـه وشريعته ونظمه نظرة الإجـلال والتقديس، وتشعر بسموها وجلالهـا، فكل مسلم مـن عامة المسلمين يكون في ذهنه تصـور إجمالي عن الإسلام ونظمه ومؤسساته ومقتضياته، كما وأن قلبه يمتلئ بحبه مما يكون سهلاً معه استثارة هذا الوجدان عند أي تحدٍّ يواجه الجماعة المسلمة.[٥٩]

وأخيـرًا، فإن مهمـة الباحث الجاد تصير أكثر صعوبة وتعقيـدًا عند محاولته رصد وتحليل وتقويم الواقع المعقد الذي يتعامل معه، وتصبح مهمته العسيرة هي ضرورة التمييز بين مستويي الجاهلية بالنسبة للفرد والأمة والنظم، ويصير مقصده الأساسي وهدفه النهائي من وراء ذلك كله هـو محاولة التمييز بين خصال الجاهلية وصفاتها وبين الإسلام في واقع الأفراد والمجتمعات والنظـم؛ حتى نصبح قادرين على ممارسة الهدم، هـدم الجاهلية وخصالها واستكمال خصال الإسلام أو شعب الإيمان وليس البناء من الصفر كما يطرح البعض.[٦٠] والأصل في ذلك حديث الرسـول ﷺ: «لا يَلْبَثُ الْجَـوْرُ بَعْدِي إلا قَليلاً حَتَّى يَطْلُعَ، فَكُلَّمَا طَلَـعَ مِنْ الْجَوْرِ شَيْءٌ ذَهَبَ مِـنْ الْعَدْلِ مِثْلُهُ حتى يولد في الْجَوْرِ مَنْ لا يَعْرِفُ غَيْرَهُ، ثُمَّ يَأْتِي اللَّهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – بِالْعَدْلِ، فَكُلَّمَا جَاءَ مِنْ الْعَدْلِ شَيْءٌ ذَهَبَ مِنْ الْجَوْرِ مِثْلُهُ حَتَّى يُولَدَ فِي الْعَدْلِ مَنْ لا يَعْرِفُ غَيْرَهُ».[٦١]

٥٩) أبو الأعلى المودودي، **الإسلام اليوم** (جدة: الدار السعودية، ١٤٠٥/١٩٨٥): ٤٧-٥٦.

٦٠) كيف تعامل الإسلام مع الجاهلية؟ قضية تحتاج إلى بحث وافٍ ينهض ببيان ملامح هذا التعامل. والباحث يمكن أن يرصد بعض العلامات المميزة في ذلك، فالإسلام لم يُحدث قطيعة كاملة بينه وبين أوضاع الجاهلية، بل مارس نوعًا من الهدم (التحريم) من جهة ونوعًا من الاستكمال من جهة أخرى، أي الإبقاء على بعض الأوضاع السابقة وإقرارها. فالإسلام إذا كان يهدم أو يجب ما قبله، فإنما يكون ذلك فيما يتعلق بالمعاصي والآثام التي ارتكبها الفرد قبل أن يسلم، ولكن في نفس الوقت إن كان محسنًا في جاهليته فإنه «يسلم على ما سلف له من خير» (حديث حكيم بن حزام). بل وأقر الإسلام وأبقى على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤدي تغييرها إلى انهيارات شديدة في بنية المجتمع القائم: «ولا تنكحوا من النساء إلا ما قد سلف» (النساء: ٤). وقسمة الأموال في الجاهلية نافذة «أيما دار أو أرض أدركها الإسلام ولم تقسم فهي على قسم الجاهلية، وأيما دار أو أرض أدركها الإسلام ولم تقسم فهي على قسم الإسلام» (الموطأ: كتاب الأقضية: باب القضاء في قسم الأموال). بل إن الرسول وأصحابه قد استفادوا من بعض قيم وتقاليد المجتمع الجاهلي في حماية الدعوة أو ذواتهم مثل الجوار والعصبية القبلية التي ترتبت عليها وجوب حماية الأهل والعشيرة لأفرادها.
كما أعطى الرسول ﷺ لبعض قيم الجاهلية مضمونًا جديدًا مخالفًا لما كان سائدًا في الجاهلية (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قالوا يا رسول الله ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟، قال: تأخذ على يديه). بل إن الباحث يزعم أن الإسلام وإن جاء بتصورات جديدة لله والإنسان والكون والحياة مخالفة لتصورات الجاهلية إلا أنه اعتمد مبدأ التصحيح المستمر لهذه التصورات، فقد صحح تصورهم للإله مطالبًا إياهم بعدم إشراك أحد معه من خلقه، وجعل ذاته سبحانه منزهة عن الشبه والمثل (وليس كمثله شيء)، كما طالبهم بالتوجه إليه وحمده بالعبادة.
أما الشعائر التعبدية وإن جاء فيها الإسلام بشعائر جديدة لم تكن معروفة لهم، فإنه قد صحح ما كان باقيًا عندهم منها وجعل وجهتها مختلفة (إن الصفا والمروة من شعائر الله ....) وهيئتها مختلفة (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ..) . كما أبقى الإسلام على مستوى الشرائع بعضًا من أحكام الجاهلية (الدية والقصاص).
أما القيم الأخلاقية وإن أسسها الإسلام على الإيمان فإنه أبقى بعض صورها واستفاد من بعض قيمها، وأسس عليها ممارسات وأحكامًا جديدة (مثل إحداد المرأة على زوجها) (فلما بُعِثَ محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم) من حديث عائشة عن النكاح. وربما يرجع هذا التعامل في كثير من جوانبه إلى بقايا دين إبراهيم في مشركي العرب، كما أن هذه الأحكام تتفق والفطرة السليمة.

٦١) الحديث رواه أحمد في مسنده.

رابعًا: مقومات الجاهلية

يقصد بالمقومات في هذا السياق تلك السمات الأساسية التي إن توفرت في فرد أو مجتمع أو نظام يمكن أن نطلق عليه وصف الجاهلية مع ضرورة مراعاة التمييز بين مستوياتها: جاهلية الأعمال، وجاهلية الاعتقاد.

بتعبير آخر فإن كل مقوِّم من هذه المقومات له آثاره السلوكية بالنسبة للفرد والمجتمع والنظم؛ فهذه المقومات بمثابة تصورات نظرية لها آثارها السلوكية، أو بعبارة أخرى فهي بمثابة منبع وقاعدة تنطلق منها كثير من التصرفات والممارسات.

ويلاحظ في هذا الإطار أن الآيات الأربع التي ورد فيها لفظة «الجاهلية» وأحاديث الرسول التي استعملت هذه اللفظة لم تأت منسوبة إلى قوم بعينهم، وإنما وردت مطلقة مجردة من النسبة، فهي منسوب إليها وليست منسوبة إلى شيء وكأنها بمثابة مرجع تقاس عليه الأشياء، وهي بذلك تتسم بقدر من الإطلاق يمكن التعميم من خلاله.

في هذا الإطار يمكن الحديث عن المقومات الأربعة التالية:

١) تصور الجاهلية لله وعلاقته بالإنسان والكون والأحداث

تصور الجاهلية للألوهية ذو طبيعة خاصة:

أ) تعترف الجاهلية بوجوده على مستوى القول «يظنون بالله» ولكنها تجعل بعض الأمر – الأمر الكوني أو الأمر التشريعي – لها ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، كأنهم بقولهم وفعلهم قادرون على أن يمنعوا عن أنفسهم القتل دون مراعاة لأمر الله في تحديد الآجال ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وبعض الجاهليات تجعل من تصورها للإله مجسدًا في جسم مادي تدركه حواسهم، كما تصور بنو اسرائيل الإله بعد خروجهم من مصر ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨][٦٢].

ب) وبعض الأمر الذي جعلته الجاهلية لله يتحقق في ظنها عبر الخوارق والمعجزات لا وفق السنن المطردة والنواميس المعلومة والنظام الذي ربط الله فيه الأسباب

٦٢) تم استخلاص هذا المقوم من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران، وقد اختلف المفسرون في الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم، فجمهور المفسرين على أنهم المنافقون، انظر: **تفسير الطبري**، مج. ٣: ١٤١؛ الزمخشري، مج. ١: ١٢٨. ولكن صاحبي تفسير المنار وصاحب الظلال يرون أنهم ضعاف الإيمان، انظر: **تفسير المنار**، مج. ٤: ١٥٤–١٥٥؛ **الظلال**، مج. ١.: ٤٩٥.

بالمسببات، مما يفتح الباب لتوهم تأثير مستقل لقوم أو طائفة عن إرادة الله في أي شيء من الأشياء.[٦٣] ومن هنا كان تقرير القرآن في حق النبي ﷺ وفي نفس السورة «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ».

العنصر الثاني في حقيقته ما هو إلا امتداد للعنصر الأول من جهة أن توهم تأثير مستقل أو طائفة عن إرادة الله تعالى في الأحداث يفتح الباب لأن يكون بعض الأمر لله وبعضه الآخر لصاحب التأثير المستقل. وهذا التصور لطبيعة الألوهية يفتح الباب واسعًا لأن يكون للإنسان مطلق الأمر باعتبار أن بعض الأمر الذي اعترفت به الجاهلية لله يتحد وفقًا لما يظنه الإنسان ويحدده ويدركه بعقله.

ت) وأخيرًا وليس آخرًا، فإن المرء يقف أمام وصف الله لهذه الطائفة بأنهم «أهمتهم أنفسهم» فأصبحت محور تفكيرهم وتقديرهم، ومحور اهتمامهم وانشغالهم، ويعجب المرء كيف أن «الجاهلية» تجعل من ذات الفرد محور تفكيره، واهتمامه، وسلامته الشخصية والبدنية هي هدفه الأساسي مما يصبح معه الفرد شخصًا أنانيًّا متطلعًا إلى مزيد من الإشباع المادي مع تعظيم لذاته ومنفعته مع تجنب أي أذى أو ضرر يلحقه حتى ولو كان في سبيل الله، ويرتبط سلوكه وتصرفاته بذلك، ومن ثم تصبح ذاته وما يرتبط بها من نفع أو ضرر محور الكون كله.

٢) وضعية التشريع[٦٤]

يقصد بوضعية التشريع على وجه العموم عدم الاحتكام مطلقًا إلى منهج الله في إدارة شئون الحياة، أو بتعبير آخر فإن وضعية التشريع تعني بشريته أي بشرية المصدر في مقابل ألوهية المصدر؛ من حيث الاستمداد منه وحده. فالقانون قد يكون على شكل عادات وتقاليد وأعراف يخضع لها الجميع، وقد يكون على شكل أمر ونهي يصدره شخص مطاع كرئيس قبيلة أو ملك، وقد يكون على شكل قواعد وأوامر تصدرها هيئة خولها المجتمع حق إصدار القوانين، وهذا القانون بمختلف أشكاله إن لم يستند ويتأسس على الوحي السماوي ويقتصر مصدره على البشر، فهو قانون وضعي، وهناك قوانين لا يكون مصدرها البشر بل خالق البشر، فهي تستند وتتأسس على تعاليمه ووحيه السماوي وإن قام البشر بصكها أو تقنينها، فهذه قوانين غير موضعية.

بتعبير آخر فإن إسناد مهمة التشريع للبشر حسبما يشير إليه مفهوم «الجاهلية» ينطوي على الخصائص والسمات التي في مقدمتها:

٦٣) سورة الأعراف، الآيات ١٣٨– ١٣٩.

٦٤) تم استخلاص هذا المقوم من الآيات ٤٨ – ٥٠ من سورة المائدة.

أ) يتأسس على عقول البشر وأهوائهم ومصالحهم الذاتية منحيًا وغير مستند إلى ما أنزل الله ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩]

ب) ومن ثم فإنه ينتفي عنه العدل المطلق كما هو في منهاج الله؛ لأن البشر يشرعون وفقًا للمصالح التي يدركها عقولهم والحاجات والمصالح التي يهدفون لتحقيقها في وقتهم ﴿ ....وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ.... ﴾ [المائدة: ٤٨]

ت) وينتج عن ذلك كله تنويع في المركز القانوني بالنسبة للناس حسب طبقاتهم في الغنى والفقر، أو حسب مركزهم في المجتمع؛ من حيث كونهم في قمة الهرم الاجتماعي أو قاعدته،[٦٥] فالقانون في نهاية الأمر سيكون محصلة صراع القوى والطبقات والأشخاص أصحاب النفوذ والمكانة. وسيأتي في نهاية الأمر تعبيرًا عن المصالح الضيقة لهذه الأطراف وعلى حساب الأطراف الضعيفة التي تملك مثل ذلك التأثير. فالقانون الوضعي في النهاية لا تحكمه ضوابط أو قواعد من خارج الجماعة تحول بينه وبين الاستبداد.

ولكن يظل الأخطر من ذلك كله أن التشريع الجاهلي سيؤدي بحكم طبيعته البشرية إلى تنويع في المركز القانوني بين الأمم والمجمعات والدول باعتبار القانون الدولي تعبيرًا عن إرادة الطرف الأقوى سواء في تكوين القاعدة القانونية أو تنفيذها، وبتعبير آخر فالقانون الوطني والدولي سيكون في نهاية الأمر محققًا لمصالح الأطراف أو الطرف الذي يملك القدوة أو القوة على صياغته وتنفيذه.

٣) الجامع السياسي بين حمية الجاهلية ودعواها[٦٦]

لكل جماعة أو أمة رابطة أو علاقة وجامع يجمع هذه الجماعات أو الأمم، ولكل أمة عروة، وقد ذهب الباحثون والمفكرون يضعون أسس الروابط والعرى كما يتصورون من أرض إلى تاريخ إلى مصالح إلى قوم أو عشيرة إلى عقيدة.

الجاهلية في هذا الإطار أمة تتأسس على الحمية لا على الولاء لعقيدة أو منهج، إنما هي الحمية:

- للأرض والتراب.

٦٥) شمس الدين، **الجاهلية في كتابه: بين الجاهلية والإسلام**: ٢٤٩.

٦٦) تم استخلاص هذا المقوم من الآية ٢٦ من سورة الفتح ومن أحاديث الرسول ﷺ التي تنهي عن الدعوى الجاهلية التي كادت تظهر بين المسلمين وهو بين أظهرهم، انظر ما قبله.

- للشعب والقوم والعشيرة (الجنس).
- للغة.
- للمصلحة.
- للباطل على حساب الحق.

الحميــة إذن تنتــج في النفســ ولاءً للفرد والقبيلة والجنســ أو اللون أو التــراب أو اللغة أو المصلحة وتقتل كل ولاء أسمى وأعلى (الولاء لله ورسوله والمؤمنين) مما يجعل الأنانية واتباع الهــوى يحــلان في النفوس ، فمن طبيعة البشر أنه إذا لــم يسعفه الولاء الأعلى لا يضحي بنفسه ونفيســه فــي سبيل مبدأ من المبــادئ مهما شرف وعظم، بل كل ما يصــدر عنه بعد ذلك مبعثه إما مصلحته الذاتية أو مصلحة قبيلته أو أسرته[٦٧] أو ما يتعصب له من لغة أو تراب أو مصلحة.

بعبــارة أخرى فإذا كان الجامــع السياسي يمارس نوعًا من التفريق والتجميع بين البشر، فإن الجامــع السياسي الجاهلي، في مقابــل الإسلامي أو الإيماني، يتميز بأنــه موصد أمام انضمام الآخريــن إليه؛ لأنه يتأسس على أشياء لا يملك الإنســان دورًا في صنعها أو إيجادها مما يؤدي في النهاية لنشأة «العصبية الجاهلية» للأشياء التي توحد عليها واجتمع حولها.

وأول أثــر يظهر لهذه «العصبية الجاهلية» هــو ازدواجية القيم في التعامل مع الآخر، فتظهر بمظهر الرأفة والعدالة في التعامل مع أهل قوميتها وبمظهر الظلم والقسوة مع المخالفين لها – أو بعبارة أخرى – فإن المبادئ الإنسانية العالمية تنصهر في قالب القومية فتظهر بمظاهر شتى وأشــكال مختلفة.[٦٨] ومن ثم فــلا سبيل إلى التوفيق بين القوميات المختلفة؛ لأنها على الدوام متحابــة فيما بينها، وتحاول كل منها أن تقضي علــى غيرها أو أن تتحصل على خيرها متشحة بأردية ودوافع تلتمس لها شعارات إنسانية أحيانًا.

بل إن الصراع قد ينشأ داخل القومية الواحدة لما يكون في داخلها من تعصب للولاء الأدنى دون الأعلــى، ولقد لعب هذا العامل دورًا كبيرًا فيتناحر المسلمون في عصور تخلفهم ما أدى إلــى اقتتالهم على مــدى التاريخ المتأخر لهــم، وكان أحد العوامل المؤثــرة في ذهاب الكيان السياسي للمسلمين (الخلافة العثمانية) نتيجة لتصاعد النعرة العصبية بين العرب والترك.[٦٩]

وأخيــرًا وليس آخرًا فإن الحمية الجاهلية تنشئ في النفس عــداءً للحق وأهله، فعداء اليهود ومشركــي العرب للرســول ﷺ والرسالة، كان فــي كثير من جوانبه مبعثــه التعصب لدين الآباء

٦٧) المودودي، **الإسلام اليوم**.

٦٨) أبو الأعلى المودودي، **بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية** (القاهرة: دار الأنصار، د.ت.): ١٦؛ قطب، **معالم في الطريق**: ١٨٣–١٩٨.

٦٩) ومن هنا كان تأكيد الإسلام على القضاء على المظاهر والسلوكيات والقيم التي يؤدي استمرارها إلى أن تظل «العصبية الجاهلية» برأسها مرة أخرى بين المسلمين: فالتقوى أساس التفاضل بين المؤمنين، والمفاخرة بالآباء والأجداد موضوعة، ومفارقة الجماعة المسلمة، والقتال تحت راية عمية توجب الميتة الجاهلية.

أو النفـرة من الانقيـاد لمحمد ﷺ أو التكبر عـن مجالسة أصحابه وهم الضعفـاء والأرذال من قومهم[٧٠]

٤) سيطرة قانون اللذة والمنفعة[٧١]

الجاهليـة فاقدة لأي محتوى أخلاقي حقيقي، فأخلاقها تتحدد وفقًا لمعيار اللذة والمنفعة، فالفضيلـة تعد كذلك بمقدار ما تحققه من منفعـة، والرذيلة تعد كذلك بمقدار ما يترتب عليها من أضرار.

ويظهـر ذلـك في تخلي الجاهليـة عن اعتبار خلق العفـة في علاقة الرجـل والمرأة؛ حيث جعلت من المرأة أداة للمتاع وإشباع الغريزة، فتبرج الجاهلية هو أن تكون المرأة أنثى لجميع الذكور، ومن ثم فإن «الشرعية» في العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة تسيطر عليها النزوات والرغبات الطارئة الجامحة.

وإذا سيطـر هـذا التصور في علاقـات الرجل بالمرأة فإنـه يؤدي في نهاية الأمـر إلى تآكل مؤسسة الأسرة وتدهور مركزها لدى الإنسان؛ نتيجة لعدم إرجاء الإشباع الجنسي لدى أفراد المجتمع ليتم وفق شرع الله من خلال الزواج.

الجاهليـة في انحرافها وراء تيار الشهوات تجعل العلاقات بين أفراد الجنس الواحد (الذكر مـع الذكـر والأنثى مع الأنثـى) أحد سبل الاستمتـاع وقضاء الشهـوات ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٤-٥٥]

وأخيـرًا وليس آخرًا فـإن الجاهلية لا تؤمن باليوم الآخر، ويفقد لديها أي اعتبار في حياتها، وتتحـول الحياة الدنيا بذلك إلى النطاق المكاني والزماني الـذي يجب أن يسعى فيه الإنسان جاهـدًا لتحصيل سعادته أو لذته ومنفعته كاملة، فليس وراء الحياة وقت ومجال لسعادة أخرى ﴿ ... وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ... ﴾ [هود: ٢٩].[٧٢]

٧٠) انظر قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

٧١) انظر قوله تعالى في سورة الأحزاب، الآية٣٣ ﴿ ...وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ... ﴾، وقوله تعالى في سورة يوسف، الآية ٣٣ ﴿ ...وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ.. ﴾.

٧٢) وكان أحد محاور تكذيب الرسل هو قضية اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور وحساب وجزاء.

الخاتمة

حول الإطار التحليلي المستخلص من تأصيل مفهوم الحاكمية

تركـزت هـذه الدراسـة علـى محاولة تحديد مفهـوم شاع فـي الفكر السياسـي العربي والإسلامي المعاصر، وأثار كثيرًا من الجدل، خاصة أن بعض الجماعات السياسية الفاعلة على ساحـة العمل السياسي قد تبنته على المستـوى الفكري، وسعت إلى تحقيق مقتضياته ولوازمه على مستوى الواقع.

والباحـث في محاولتـه للتعامل مع مفهوم الحاكميـة وبنائه قد رفض الأفهـام والتناولات المختلفـة له، وسعى لتأصيله مـن خلال نقطة مرجعية تتجاوز هـذه الأفهام وتلك التناولات، فانطلق من دلالة لفظ الحكم في الأصول (القرآن والسنة) بعد أن أثبت نسبة المفهوم إليهما من خلال جـذره اللغوي، بالإضافة إلى دراسته من خلال تحديد موقعه في البناء المفاهيمي الذي يستدعيه ليتساند معه، والمفاهيم التي تتناقض معه.

وبهـذا المسلك المنهجي خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج التي كانت بمثابة إجابة عن التساؤلات التي طرحتها افتراضات الدراسة:

أولاً: مفهوم الحاكمية من المفاهيم الأصولية الشرعية التي امتلأت بها آيات القرآن وأحاديث الرسـول ﷺ، وقد وردت في الأصول بمعنيين؛ المعنـى الأول: الحاكمية الكونية، وهي إرادة الله الكونيـة القدرية التي تتمثل في مشيئته العامة المحيطة بجميع الكائنات، وهي تعني القضاء الكلي الناتج عـن العلم الإلهي العام المترتب على الحكمة الكونية في الأفعال الإلهية. المعنى الثانـي: الحاكمية التشريعيـة؛ وهي تلك التي تتعلق بإرادة الله الدينيـة، وتتمثل هذه الإرادة في تصـور عقدي عـن الله والكون والإنسان ونظرية الشريعة العامـة؛ حيث تكون العبادات جزءًا منها بالإضافة إلى النظرية الأخلاقية. والتزام الإنسان بالحاكمية التشريعية يحقق الانسجام بينه وبيـن الكون من حوله؛ حيث يكـون خاضعًا لإرادة الله اختيارًا باتبـاع قانون الله الشرعي في حياته الاختيارية، كما هو خاضع لإرادة الله الكونية وتابع لقانونه الطبيعي في حياته الجبرية.

والحاكميـة في جانبها التشريعي لا تثبت لأحد على الحقيقة إلا لله فهو الحاكم الحقيقي من خلال شريعته، ولكن هذا لا يمنع أو ينفي أو يؤتي سبحانه بعض الأطراف نوع حكم تختص به وتمارسه، ولكنه حكم مقيد بحاكمية الله فهو حكم فرعي، وليس أصليًّا. بعبارة أخرى، فالحاكمية لا تنفي أن يكون للبشر قدر من التشريع أذن الله به لهم، إنما تمنع أن يكون لهم استقلال بالتشريع غير مأذون به من الله. فمن حق المسلمين أن يشرعوا لأنفسهم وذلك في دائرة ما لا نص فيه أصلاً وهو كثير، ولهم أن يجتهدوا فيما فيه نص لتحقيق مناط الحكم وتنزيله للواقع.

ثانيًا: ومن هذا المنطلق يمكن فهم طبيعة العلاقة بين مفهوم الحاكمية ومفهوم الاستخلاف في الرؤيـة الإسلامية، فمضمون الحاكمية بمكوناتها هو عهـد الاستخلاف الذي يجب على الإنسـان الالتزام به وتحقيقه. فطبيعة الاستخلاف تستوجـب وجود منهج وشريعة يحدد فيها المستخلف أسس وقواعد وضوابـط حركة المستخلف. الحاكمية هي المحددة لهذا المنهج والموضحة للضوابط الحاكمة لتحقيق الاستخلاف.

ومـن خلال تبين ملامح هذه العلاقة بين مفهوم الحاكمية والاستخلاف يمكن فهم الطبيعة لنظـام الحكـم الإسلامي: فلا هو بالنظام الديمقراطي الذي يطلق سلطـان الأغلبية دون قيد أو شـرط أو ضابـط من خارج الجماعـة البشرية، ولا هو بالنظام الثيوقراطـي الذي يطلق سلطان الحاكـم فيجعل منه ظل الله فـي الأرض، بل هو نظام يمكن أن نطلـق عليه «نظام الحاكمية»؛ حيـث تكون فيه الحاكمية لله ويكون الناس مستخلفين عـن الله لعمارة الكون وإقامة شريعته. ولتنظيـم أمورهـم عليهم أن يختاروا إمامًـا أو حاكمًا، فالأمة تختاره وتعينـه محكومة بسيادة الشريعة المجسدة لحاكمية الله.

وعلى ذلك فإن ضمانات تقييد السلطة في الإسلام «ضمانات شرعية» مستمدة من الشريعة لا مـن قرارات الأغلبية، وبذلك لا تكون تحـت رحمة هذه الأغلبية أو من هو قادر على إعادة تشكيلها وصنعها، فهي مبادئ ثابتة تفرضها الشريعة وتتأسس على العقيدة وتلتزم بالأخلاق.

وأهميـة هـذه الطبيعة المميـزة للضمانات في النظـام الإسلامي أن الدولـة بجميع هيئاتها وسلطاتها ونظمها وأجهزتها تخضع لهذه المبادئ وتلك الضمانات، فما دام الجميع عبيدًا لله خاضعين لسلطانه، فالدولة كذلك تدخل ضمن هذا الإطار، ولا يجوز أو يمكن أن ينسب إليها سيـادة مطلقة. فما ينتج عن الدولة وهيئاتها فـي النظام الإسلامي قرارات نسبية قابلة للمراجعة والنقـد والتعديـل على ضـوء مبادئ الشريعـة ومقاصدهـا وأحكامها على عكـس النظريات الأوروبية التي تجعل من السيادة – سيادة الدولة – سلطة مطلقة نهائية لا معقب عليها.

ثالثًـا: أن النتيجـة الأهم في ظـن الباحث تتحدد من خلال دراسة طبيعـة العلاقة بين كلٍّ من مفهـوم الحاكميـة ومفهوم الجاهلية ومظاهرهمـا المعاصرة وتبدياتهمـا الحاضرة. فكلٌّ من المفهوميـن له نسـق خاص به يستدعي بعضه بعضًا مكوِّنًا نقطـة مثالية تكون مثالية بمثابة قمة التناقض بين المفهومين.

والرسم التالي يوضح هذه الحقيقة:

	نسق الحاكمية	نسق الجاهلية
المطلق	الله.	الدولة/ الإنسان.
الحاكمية	في جانبها التشريعي والتكويني يختص بها الله دون سائر خلقه.	بعض الأمر لله وبعضه الآخر لغير الله. وبعض الجاهليات لا تعترف بالله مطلقًا، وإن اعترفت به فإنما يكون ذلك على مستوى القول فقط، وليس له وجود أو تأثير في الواقع أو نظرية المعرفة. فالحاكمية تتجسد في نقطة حالة غير متجاوزة للإنسان والطبيعة.
القوانين والتشريعات	سيادة الشريعة: الانطلاق من النص الموحى به في صياغة القوانين والتشريعات.	وضعية التشريع: فالبشر هم صانعو تشريعاتهم وقوانينهم دون الالتزام بقواعد حاكمة أو قيم متجاوزة لهم.
الإنسان	مستخلف عن الله في الأرض وملتزم بعهد الاستخلاف.	محور الكون ومركزه لا تحده حدود ولا تقيده ضوابط من خارج البشر.
القيم	الحاكمية تعني: أن تكون لمفاهيم الخير والشر مقاييس ومعانٍ ثابتة لا تُغيَّر بتغير الأحوال والأزمان، فهناك قيم مطلقة يمكن الاحتكام إليها، ومن ثم فالإنسان ليس حرًّا حرية مطلقة، وإنما يتحرك داخل حدود هذه القيم الثابتة.	التغير والنسبية سمتا القيم الجاهلية، فمفاهيم الخير والشر لا تحمل حقيقة ملزمة في ذاتها، وإنما تتخذ صورًا متعددة تتلاءم مع مقتضيات الظروف الاجتماعية والسياسية. الإنسان كائن حر تمامًا ولا تحده حدود، فهو صانع هذه القيم ويملك تغييرها.
الاختلاف	الحاكمية هي التي تحدد الإطار الضابط للاختلاف الذي لا يجوز تجاوزه، وإلا تحوَّل الاختلاف إلى فوضى.	الاتفاق الهش حول عدم الاختلاف مما يترتب عليه أن تكون هناك نقطة تتصادم فيها المصالح مما يولد الصراع بين الأفراد والتجمعات.
المصلحة	المصلحة الشرعية أي المنضبطة بالشريعة.	المصلحة القومية أو الفردية مع سيادة قانون اللذة والمنفعة. فالمصلحة القومية هي المعيار الوحيد أو القانون المهيمن الذي يجب أن تعالج على ضوئه كافة الشئون العامة.
السلطة	السلطان للأمة.	السيادة للأمة.
الجامع السياسي	تحدده العقيدة؛ حيث يكون الولاء لله ورسوله والمؤمنين، ومفتوح أمام انضمام الآخرين.	يتأسس على الحمية للوطن أو القوم أو الأرض، فهو موصد أمام انضمام الآخرين إليه.

وعلى الرغم من وضوح هذين النسقين وتناقضهما على المستوى النظري فإنه تظل المشكلة شائكة ومعقدة في أرض الواقع؛ حيث يختلط النسقان معًا مما يصبح الحكم الذي

يأخـذه هـذا الواقع بالغ الصعوبة. وإنـي أرى أن الحكم الذي يأخذه الفـرد أو النظم أو الدولة يتحـدد وفقًـا لقربهم من النقطة المثالية في كلٍّ من النسقين، ويتم ذلك بصفة أساسية من خلال الجانـب الاعتقادي في كلا النسقين. يتطلب الدخول فـي نسق الحاكمية اعترافًا بحاكمية الله مع تحقيق مقتضيات هذه الحاكمية في أرض الواقع. ويأتي على رأس هذه المقتضيات اعتراف للديـن بدور أساسي في تسيير أمور الحياة، مع الاعتراف بصلاحية الشرعية لكل زمان ومكان واستمداد القوانين والتشريعات منها، وأي انحراف بعد ذلك أو انتقاص إنما يدخل في جانب السلـوك لا جانـب الاعتقاد. بعبارة أخرى فـإن الانتقال من مكـون أو مقتضى من مقتضيات الحاكميـة إلى آخر «الجاهلية» يمثـل انتقاصًا لمفهوم الحاكمية بشرط بقـاء الالتزام العقيدي بالمبـدأ، ويكون هذا بمثابة انتقـال من النقطة المثالية إلى نقطة أخـرى على الخط المستقيم، واقتراب من الجاهلية بقدر أو بآخر، والعكس بالعكس أيضًا.

الحاكمية وفقًا لهذا التصـور لها تبدياتها ومظاهرها التي تتجلى من خلال عناصر ومفاهيم الجـدول السابق عرضه، والدراسة الواقعية لآليات الانتقال من نسق لآخر تتطلب توسيع دائرة النظـر من خلال تتبع هذه التبديات وتلك المظاهـر والقضايا والمفاهيم التي يحملها كل نسق وكيفية الانتقاص منها وانتقاضها بالكلية، وليس الاقتصار على جانب واحد من جوانب نسق، فهـذا الاقتصار يعطي ضيقًا في الأفق والرؤية، وخطئًـا في الحكم وسوءًا في الفهم، واضطرابًا فـي الحركـة. وتظل رغم ذلـك القضية الأهم في نظـري والتي تحتاج إلـى المزيد من الجهد ومتابعة البحث هي الدراسة الواقعية لآليات الانتقال من نسق لآخر خاصة أن هذا تم في فترات تاريخية مختلفة من عمر البشرية وتاريخ الأمة المسلمة.

هنا تثار قضية لهـا أولويتها وأهميتها على مستوى الفكر السياسي العربي والإسلامي تتعلق بتأثير الأفهام والإدراكات المختلفة لمفهوم الحاكمية لدى بعض المفكرين الإسلاميين وبعض الحركات الإسلامية على الحركة والسلوك الواقعي لهم. فالفهم والإدراك الخاص الذي ينطلق منه المفكر أو الحركة لمفهوم الحاكمية يرتب نتائج معينة ويفرض حركة وسلوكًا في نظرتهم وتعاملهـم مع الواقع الذي نعيشه، وهذا ما يحتاج إلى متابعـة في البحث نأمل أن يتم؛ ليساعد إلـى حدٍّ كبير في بلـورة تعامل راشد يساهم إلى حدٍّ كبير في الخـروج من أسر الصراع الدائم بيـن الحركة الإسلاميـة والنظم السياسيـة والاجتماعية والاقتصادية القائمة فـي بلداننا العربية والإسلامية.

قائمة المراجع

- أبادي، الفيروز. **القاموس المحيط.** د.م.، د.ت.
- ابن الأثير. **الكامل في التاريخ**. بيروت: دار صادر، ١٩٨٢.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير.** تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤.
- ابن كثير. **البداية والنهاية.** بيروت: مكتبة المعارف، د.ت.
- ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم.** تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون. القاهرة: دار الشعب، د.ت.
- **الإسلام والجاهلية.** القاهرة: مكتبة التراث العربي، ١٩٨٠.
- الألوسي. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.** بيروت: دار إحياء التراث، د.ت.
- أمين، أحمد. **ضحى الإسلام.** ط. ١٠. القاهرة: مكتبة النهضة العربية، د.ت.
- البهنساوي، سالم. **الحكم وقضية تكفير المسلم.** ط. ٣. الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٨٥.
- البهي، محمد. **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار.** ط. ١١. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٥.
- السيوطي، جلال الدين. **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة.** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧.
- شمس الدين، محمد مهدي. **الجاهلية والإسلام.** ط. ٣. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٧.
- الطبري، ابن جرير. **تاريخ الأمم والملوك.** بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د.ت.
- عبد الغفار، أحمد أمين. **الجاهلية قديمًا وحديثًا: دراسة في ضوء القرآن والسنة والفكر الإسلامي.** الكويت: شركة الشعاع للنشر، د.ت.
- العسقلاني، ابن حجر. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**. القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٧.
- الفارابي، أبو نصر. **آراء أهل المدينة الفاضلة.** ط. ٢. القاهرة: مكتبة الحسين التجارية، ١٩٦٨.
- **القرآن في مواجهة المادية.** القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٨.
- القرضاوي، يوسف. **الاجتهاد في الشريعة الإسلامية مع نظرات تحليلية في الاجتهاد المعاصر.** الكويت: دار القلم، ١٩٨٥.
- الكيالي، عبد الوهاب. **الموسوعة السياسية.** بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣.
- لويس، برنارد. **الغرب والشرق الأوسط.** ترجمة نبيل صبحي. القاهرة: دار المختار الإسلامي، د.ت.
- المودودي، أبو الأعلى. **موجز تاريخ الدين وإحيائه.** ترجمة محمد كاظم السباق. جدة: السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥.
- الندوي، أبو الحسن. **التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب.** ط. ٦. القاهرة: دار آفاق الغد،١٩٨٠.
- الندوي، أبو الحسن. **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟** ط. ٦. القاهرة: مكتبة الدعوة الإسلامية، ١٩٦٥.
- الهضيبي، حسن. **دعاة لا قضاة: بحوث في العقيدة الإسلامية ومنهج الدعوة إلى الله.** القاهرة: دار الطباعة والنشر الإسلامية، د.ت.